

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الخطب الإذاعية - الخطبة : 50 - أثر الإيمان في نزول الرحمة - الغدة الصغرية - التيموس .

14-01-2000

الخطبة الأولى:

الحمد لله نعمده حق حمده، ونسأله المزيد من فضله، فهو يعلم السر وأخفى، والجهر والنجوى، خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى فجعله غثاء أحوى، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلقت فسويت، وقدرت وقضيت، وأمت وأحييت، وأمضت وشفيت، وعافيت وابتليت، وأغنيت وأقنيت، وأضحكت وأبكيت، والمرجع والمآل إليك، نحن بك وإليك، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، خيرته من خلقه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وترك أمته على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، صلوات الله عليه، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغر الميامين، أمناء دعوته، وقادة ألويته، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد أوصيكم ونفسي بتقوى الله وأحتكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير.

التقنين الإلهي هو تقنين تأديب وتربية لا تقنين عجز وبخل:

أيها الأخوة المؤمنون في دنيا العروبة والإسلام، إنَّ المتفكّر في خلق السماوات والأرض يتبدى له من خلال جولته التأملية أنّ الله تثبت أشياء كثيرة، منها النواميس والقوانين التي تحكم حركة الحياة، وثبتت خصائص الأشياء التي نتعامل معها، وثبتت دورة الأفلاك المحيطة بنا، وكل ذلك ترسيخاً للنظام الكوني، وتحقيقاً لتسخير الأشياء لنا، كي ننتفع بها في حياتنا الدنيا، ولكي ترشدنا إلى ربنا فنعرفه ونطيعه ونسعد بقربه في الدنيا والآخرة.

وحزك أشياء قليلة، منها الصحة والرزق، لتكون وسائل لتربيتنا والأخذ بيدنا إلى الله وإلى جنته، فالإنسان حريص على سلامته وعلى رزقه، ومن الثابت أن التقنين الإلهي هو تقنين تأديب وتربية لا تقنين عجز وبخل، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27) ﴾

(سورة الشورى)

وقال سبحانه:

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾

(سورة الحجر)

الله جلّ وعلا لا يسوق لعباده شدة إلا بما كسبت أيديهم ويعفو عن كثير:

ثم إن الله جلّ وعلا لا يسوق لعباده شدة إلا بما كسبت أيديهم، ويعفو عن كثير، قال عز وجل:

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾

(سورة النساء الآية: 147)

وقال عزّ من قائل:

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾

(سورة الشورى)

أخوة الإيمان في كل مكان، روى ابن ماجه والبيهقي عن عبد الله بن عمر قال: أقبِلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ حَمْسٌ إِذَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَطْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَصَّتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّتِينِ وَشِدَّةِ الْمُنُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَنَعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أَيْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ))

[ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهما عن عبد الله بن عمر]

ولكن ما العمل بعد نزول المصائب؟ القرآن الكريم أجاب عن هذا السؤال، قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(سورة السجدة)

إنّ الهدف الأول والأوحد من سوق العذاب في الدنيا هو رجوع العباد إلى الله، والشيء الأول والأوحد الذي يصرف البلاء عن الإنسان في الحياة الدنيا هو طاعة الله وطاعة رسوله مخلصاً فيها.

الاستغفار من الوسائل التي تزيد في الرزق:

يا أيها الأخوة الكرام، قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) ﴾

(سورة الأنفال)

قال علماء التفسير: ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم القولية والعملية والتقريبية مطبقة في حياتهم، وفي بيوتهم، وفي علاقاتهم الأسرية، ومطبقة في أعمالهم، وفي كسب أرزاقهم، مطبقة في حلهم وترحالهم، وفي أفراحهم وأحزانهم، مطبقة في منشطهم ومكرهم، في يسرهم وعسرهم؛ فهذه في مأمن من عذاب الله، أما لو حيرتهم الشبهات، وغلبتهم الشهوات، فزلت أقدامهم، وانحرفت مسيرتهم، فأمامهم فرصة ثمينة منحها الله لهم، وبها يأمنون عذاب الله مرة أخرى، إنها الاستغفار، قال الغفور الرحيم:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12) ﴾

(سورة نوح)

لقد أطعمهم ربهم إن هم استغفروه بالرزق الوفير الميسور، من أول أسبابه التي يعرفونها ويرجونها وهي المطر الغزير، الذي تنبت به الزروع، وتتفجر به الينابيع، وتسيل به الأنهار، كما وعدهم برزق آخر من الذرية التي يحبونها وهي البنون والأموال التي يطلبونها ويحرصون عليها:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً * ﴾

في القرآن مواضع متكررة ربط الله جل جلاله فيها بين الاستغفار والأرزاق الوفيرة:

ربط الله جل جلاله بين الاستغفار وهذه الأرزاق الوفيرة، وفي القرآن مواضع متكررة فيها، هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله وبين تيسير الأرزاق وعموم الرخاء، جاء في موضع ثانٍ:

﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16) لِنُقَاتِهِمْ فِيهِ (17) ﴾

(سورة الجن)

وجاء في موضع ثالث:

﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسِناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (3) ﴾

(سورة هود)

وجاء في موضع رابع:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾

(سورة المائدة الآية: 66)

ما من أمة قام فيها شرع الله إلا فاضت فيها الخيرات ومكن الله لها في الأرض:

أخوتي المؤمنين أعزائي المستمعين، هذه القاعدة التي يؤكدنا القرآن في مواضع متفرقة، قاعدة تقوم أسبابها على وعد من الله، ومن سنن الحياة ؛ كما أن الواقع العملي يشهد بتحقيقها على مدار القرون، والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد. وما من أمة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهها حقيقياً إلى الله عبادة واستقامة وعملاً صالحاً واستغفاراً يشعر بخشية الله، وما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً، إلا فاضت فيها الخيرات، ومكن الله لها في الأرض واستخلفها على خلقه قيادة وهداية، وبدل خوفها أمناً، قال تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً (35) ﴾

(سورة الأنبياء)

نشهد في بعض الفترات أمما لا تتقي الله ولا تقيم شريعته ؛ وهي مع هذا موسع عليها في الرزق، ممكن لها في الأرض، ولكن هذا إنما هو الابتلاء، ثم هو بعد ذلك رخاء ظاهري، تأكله آفات الاختلال الاجتماعي والانحدار الأخلاقي، فقد صرح مسؤول كبير في العالم الغربي أن هناك أخطاراً كبيرة تهدد المجتمع الغربي منها تفكك الأسرة، وشيوع الجريمة، وانتشار المخدرات، وسقوط القيم، ثم انتشار مرض الإيدز.

من ملامح السنة الكونية أن هداية الله تسير مع الإنسان في أربع مراحل:

أيها الأخوة حضوراً ومستمعين، قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ(94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(95) ﴾

(سورة الأعراف)

إن السياق القرآني هنا لا يروي حادثة إنما يكشف عن سنة. ولا يعرض سيرة قوم إنما يعلن عن خطوات قدر، ومن ثم يتكشف أن هناك سنة تكوينية تجري عليها الأمور وتتم وفقها الأحداث ؛ ويتحرك بها تاريخ الإنسان في هذه الأرض. وأن الرسالة ذاتها على عظم قدرها هي وسيلة من وسائل تحقيق الناموس الأكبر، وأن الأمور لا تمضي جزافاً ؛ وأن الإنسان لا يقوم وحده في هذه الأرض كما يزعم الجاهلون الشاردون ! وأن كل ما يقع في هذا الكون إنما يقع عن تدبير، ويصدر عن حكمة، ويتجه إلى

غاية. وأن هنالك في النهاية سنة ماضية وفق إرادة الله الطليقة التي وضعت السنة وارتضت الناموس. من ملامح هذه السنة الكونية أنّ هداية الله تسير مع هذا الإنسان الذي خلق لجنة عرضها السماوات والأرض في أربع مراحل:

1- الدعوة البيانية:

الدعوة البيانية، وهي دعوة الأنبياء والمرسلين والدعاة الصادقين، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) ﴾

(سورة القصص)

وقال سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24) ﴾

(سورة الأنفال)

وقال:

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50) ﴾

(سورة القصص)

فإن لم يستجيب الناس لدعوة ربهم لهم إلى ما يحييهم الحياة التي خلقوا من أجلها، والحياة التي تليق بإنسانيتهم، والحياة التي تتصل فيها نعم الدنيا بنعم الآخرة، فإن لم يستجيبوا طُبِّقَتْ عليهم الخطة الثانية وهي:

2- التأديب التربوي:

التأديب التربوي: فليس من العبث - وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - أن يأخذ الله عباده بالشدة في أنفسهم وأبدانهم وأرزاقهم وأموالهم، إنما يأخذ الله المكذبين بالحق يأخذهم بالبأساء والضراء، لأن من طبيعة الابتلاء بالشدة أنه يوقظ الفطرة التي ما يزال فيها خير يرجى، وأن يرقق القلوب التي طال عليها الأمد متى كانت فيها بقية من خير، وأن يتجه بالبشر الضعاف إلى خالقهم القهار يتضرعون إليه، ويطلبون رحمته وعفوه، ويعلنون بهذا التضرع عن عبوديتهم له، والعبودية لله غاية الوجود الإنساني، وما بالله سبحانه من حاجة إلى تضرع العباد وإعلان افتقارهم له، ولكن تضرع العباد وإعلان عبوديتهم له إنما يُصْلِحُهُمْ هم، ويصلح حياتهم ومعاشهم كذلك.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي(56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِي(57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(58)﴾

(سورة الذاريات)

فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرّروا من العبودية لسواه، وتحرّروا من العبودية للشيطان الذي يريد أن يغيوهم، وتحرّروا من شهواتهم وأهوائهم، وتحرّروا من العبودية للعبيد من أمثالهم، واستحووا أن يتبعوا خطوات الشيطان، واستحووا أن يغيضوا الله بعمل أو نية، لذلك اقتضت مشيئة الله أن يأخذ أهل كل قرية شردت عنه بالبأساء في أنفسهم وذواتهم، وبالضراء في أبدانهم وأموالهم، استحياء لشعورهم بالألم. والألم خير مهذب، وخير مفرج لينابيع الخير المستكنة، وخير مرهف للحساسية في الضمائر الحية، وخير موجه إلى ظلال الرحمة التي تلوح للضعاف المكروبين قال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ (95) ﴾

(سورة الأعراف)

لكن حينما لا تحدث الشدائد في الناس توبة وإنابة بسبب شدة غفلتهم، وبُعد انغماسهم في المتع الرخيصة، تصبح مصيبتهم الكبرى في أنفسهم، وقد قيل: من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة، فمصيبته في نفسه أكبر، عندئذ يخضعهم الله للخطة الثالثة:

3- الرخاء الاستدراجي:

الرخاء الاستدراجي: فإذا الرخاء مكان الشدة، واليسر مكان العسر، والنعمة مكان الشظف، والعافية مكان الضر، والذرية مكان العقر، والكثرة مكان القلة، والأمن مكان الخوف. وإذا هو متاع ورخاء، وهناء ونعماء، وكثرة وامتلاء، وإنما هو في الحقيقة اختبار وابتلاء. والابتلاء بالشدّة ينتفع به الكثيرون، فالشدّة تستثير عناصر المقاومة للمعاصي والآثام، وقد تذكر صاحبها بالله - إن كان فيه بقية من خير - فيتجه إليه ويتضرع بين يديه، ويجد في ظلّه طمأنينة، وفي رحابه فسحة، وفي فرجه أملاً، وفي وعده بشرى، أما الابتلاء بالرخاء فالذين ينتفعون منه قليلاً. فالرخاء ينسي، والمتاع يلهي، والثراء يطغي، فلا ينتفع به إلا القليل من عباد الله، قال عز وجل:

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ (95) ﴾

(سورة الأعراف)

أي حتى كثروا وانتشروا، واستسهلوا العيش، واستيسروا الحياة، ولم يجدوا في أنفسهم تحرجاً من شيء يعملونه، ولا تخوفاً من أمر يصنعونه، وكلمة: ﴿عَفَوا﴾ - إلى جانب دلالتها على الكثرة - توحى بحالة نفسية خاصة؛ حالة اللامبالاة، حالة الاستخفاف والاستهتار، حالة استسهال كل أمر، حالة اتباع كل خاطر، وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة، حين يطول بهم العهد أفراداً وأماً، كأن

حساسية نفوسهم قد ترهلت فلم تعد تحفل بشيء، أو تحسب حساباً لشيء، فهم ينفقون في يسر، ويتلذذون في يسر، ويلهون في يسر، ويبطشون كذلك في يسر ! ويقترون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان ويرتعش لها الوجدان في يسر واطمئنان ! وهم لا يتقون غضب الواحد الديان، ولا لوم الناس ولا الخلل، فكل شيء يصدر منهم عفواً بلا تخرج ولا مبالاة. وهم لا يفتنون لسنة الله في الكون، ولا يتدبرون اختباره وابتلاءاته للناس، ثم يحسبونها تمضي هكذا جزافاً، بلا سبب معلوم، ولا قصد مرسوم:

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ (95)﴾

(سورة الأعراف)

قد أخذنا حظاً من الضراء وجاء حظنا من السراء ! وها هي ذي ماضية بلا عاقبة لأواء، فهي تمضي هكذا كخبيطة عشواء، عندئذ وفي ساعة من الغفلة السادرة تجيء العاقبة وفق السنة الجارية:

﴿فَأَخَذْنَا هُمْ بِعُقَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95)﴾

(سورة الأعراف)

جزاء بما نسوا، واغتروا، وبعدوا عن الله، وأطلقوا لشهواتهم العنان، فما عادوا يتخرجون من فعل، وما عادت التقوى تخطر لهم ببال، هؤلاء يبنون مجدهم ومجد شعوبهم على أنقاض بقية الشعوب، وبينون غناهم على إفقار الشعوب، وبينون قوتهم على إضعاف الشعوب، وبينون سعادتهم على شقاء الشعوب. إن تحكم القطب الواحد، وازدواجية المعايير، وسيطرة الاحتكارات الكبرى حول العالم إلى غابة تتحكم فيها قواعد القوة، وتغيب عنها ضوابط المبادئ والقيم، كما قال السيد الرئيس في أحد خطباته. قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42)﴾

(سورة إبراهيم)

حينما لا ينتفع الإنسان بالرخاء الاستدراجي، وهو آخر مرحلة ينتظر أن ينتفع بها الإنسان، حيث إن الله بيّن له عن طريق الأنبياء والمرسلين والدعاة الصادقين فلم يستجب، وساق له من الشدائد فلم يتب، وأغرقه بالنعم فلم يشكر، عندئذ يحسم أمره، فيقضم ظهره، وهي المرحلة الرابعة.

4- مرحلة القصم:

مرحلة القصم: وهذه المرحلة توضحها الآية الكريمة:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَا هُمْ بِعُقَّةٍ (44)﴾

(سورة الأنعام)

الطرف الآخر لسنة الله الجارية في خلقه:

أيها الأخوة الأحباب، للموضوع طرف آخر، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (96) ﴾

(سورة الأعراف)

ذلك هو الطرف الآخر لسنة الله الجارية في خلقه، فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب، واتفقوا بدل العصيان ؛ لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، هكذا:

﴿ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (96) ﴾

(سورة الأعراف)

مفتوحة بلا حساب، تأتيهم هذه البركات من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي فيضاً من العطاء الغامر الذي لا يعهده البشر من الأرزاق والأقوات.

إن العقيدة الإيمانية في الله وطاعته ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة، وعن تاريخ الإنسان. إن الإيمان بالله وطاعته يؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض وعداً من الله. ومن أوفى بعهده من الله؟ ونحن - المؤمنون بالله - نتلقى هذا الوعد بقلب مؤمن، فنصدق ابتداءً، لا نسأل عن علله وأسبابه، ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله، نحن نؤمن بالله - بالغيب - ونصدق بوعدته بمقتضى هذا الإيمان، لكن المذاهب الوضعية تغفل عنه، بل وتغفله كل الإغفال، وتنكره أشد الإنكار !

الإيمان بالله والتقوى يزيد من الرزق:

إن الإيمان بالله دليل على سلامة في الفطرة، وسلامة في أجهزة الاستقبال، وصواب في الإدراك الإنساني، وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

إنَّ الإيمان بالله قوة دافعة دافقة، تجمع جوانب الكيان البشري كلها، وتتجه بها إلى وجهة واحدة، لتحقيق مشيئة الله للإنسان في خلافة الأرض وإعمارها، وفي دفع الفساد والفتنة عنها، وفي ترقية الحياة ونماؤها، وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

الإيمان بالله تحرُّرٌ من العبودية للهوى، ومن العبودية للعبيد، وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة من عبيد للهوى وعبيد الأشخاص. وتقوى الله، يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور، وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج، فلا يعتدي، ولا يتهور، ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح، وحين تسير الحياة متناسقةً بين الدوافع والكوابح، عاملة في الأرض، متطلعة إلى السماء، متحررة من سلطان الهوى وهيمنة الأقوياء، عابدة خاشعة لله، تسير سيرة صالحة منتجة، فلا جرم أنه تحفها البركة، ويعمها الخير، ويظلمها الفلاح.

والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون، في توكيد ويقين، ألوان شتى لا يفصلها النص القرآني ولا يحددها. وأما إحياء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، ما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال ! فعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ))

[رواه ابن ماجه وأحمد والدارمي عَنْ ثَوْبَانَ]

الذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة لا صلة لها بواقع الناس في الأرض، لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة ! وما أجدرهم أن ينظروا نظرة أعمق، وأن يستنبطوا من كلام الله استنباطاً أليق.

الموازنة بين (بركات من السماء والأرض) وبين (أبواب كل شيء):

أيها المسلمون في كل مكان، لا بد ونحن في صدد هذا الموضوع من الموازنة بين بركات من السماء والأرض في قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (96) ﴾

(سورة الأعراف)

وأبواب كل شيء في قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) ﴾

(سورة الأنعام الآية: 44)

إنّ الرزق في بركات من السماء والأرض متاع طيبٌ ورخاء، وهو رغد في الدنيا، وزادٌ إلى الآخرة، والرزق في أبواب كل شيء مثار قلق وخوف، ومثار حسد وبغض، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض، وقد يكون معه التلّف بإفراط واستهتار.

إنّ الذرية في بركات من السماء والأرض هي زينة الحياة الدنيا، ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر في الآخرة، بالذرية الصالحة، والذرية في أبواب كل شيء بلاءٌ، ونكدٌ، وعنتٌ، وشقاءٌ، وسهرٌ بالليل، وتعب بالنهار.

وإنّ الصحة والعافية في بركات من السماء والأرض هي نعمة وحياة طيبة، والصحة والعافية في أبواب كل شيء بلاءٌ يسلبه الله على الصحيح المعافى، فينق الصّحة والعافية فيما يحطم الجسم ويفسد الروح، ويزخر السوء إلى يوم الحساب.

وإنّ الجاه والقوة في بركات من السماء والأرض هو أداة إصلاح ومصدر أمن، ووسيلةٌ لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر، والجاه والقوة في أبواب كل شيء مصدرا قلقٍ على فوته، ومصدرا طغيان وبغي، ومصدرا حقدٍ وكرهية، لا يقر لصاحبها قرار، ويدخر بها للأخرة رصيذاً ضخماً إلى النار. فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح، وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها، مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال، فهي قوة بلا أمن، وهو متاع بلا رضى، وهي وفرة بلا صلاح، وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد، وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال، إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، بركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر.

وسائل أخرى تزيد في الرزق:

أيها السادة المستمعون أيتها السيدات المستمعات، والآن هل من وسيلة ذكرها القرآن الكريم وبينتها السنة المطهرة فضلاً عن الاستغفار والإيمان والتقوى تزيد في الرزق، وكل واحد من الخلق حريص على زيادة رزقه، فهل هناك علاقة بين الرزق والصلاة؟ انظروا في قوله تعالى:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَنْزِلُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132) ﴾

(سورة طه)

هناك علاقة بين الرزق والشكر، انظروا في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) ﴾

(سورة إبراهيم)

هناك علاقة بين الرزق وصلة الرحم، انظروا في هذا الحديث الشريف، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ))

[منفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

هل من علاقة بين الرزق والصدقة؟ لقد ورد في الأثر:

((اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ))

[الكامل في ضعفاء الرجال، وفيض القدير للمناوي عن جبير بن مطعم]

هناك علاقة بين الرزق والأمانة، انظروا في هذا الحديث الشريف:

((الْأَمَانَةُ غِنَى))

[أخرجه القضاعي في مسند الشهاب]

بالمعنى المادي، والأمين ينال أتمن شيء وهو ثقة الناس.

هناك علاقة بين الرزق والإتقان، انظروا في هذا الحديث الشريف:

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُثِقَنَهُ))

[الجامع الصغير ومسند أبي يعلى الموصلي والطبراني في الأوسط عن عائشة]

فَمَنْ أَتَقَنَ عَمَلَهُ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَلْقَى مَحَبَّتَهُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَأَحَبَّهُ الْخَلْقُ يَسِّرْهُ لِلْيَسْرِ.

فضل صلاة الاستسقاء:

أيها الأخوة الأعزاء، وقد تنقطع أسباب الرزق بانقطاع الأمطار، فتغور الينابيع وتجف الأنهار، ويبس الزرع، ويموت الضرع، ويهدد الإنسان بافتقار كأس الماء، ولقمة العيش، ويجد نفسه مضطراً أن يخرج من أرضه الجذباء مشرداً، وأن يغادر بيته الخاوي هائماً على وجهه، وقد شرع لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الاستسقاء طلباً للرحمة والإغاثة بإنزال المطر الذي هو حياة كل شيء ممن يملك ذلك، وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَهُوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ. ثَبَّتَتْ مَشْرُوعِيَّتُهُ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، أَمَا النَّصُّ فَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12) ﴾

(سورة نوح)

كَمَا اسْتَدَلَّ لَهُ بِعَمَلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَائِهِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ فِي اسْتِسْقَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَقَامَ النَّاسُ فَصَاحُوا فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَحَطَّ الْمَطْرُ وَاحْمَرَّتْ الشَّجَرُ وَهَلَكْتَ الْبِهَانِمُ فَادْعُ اللَّهَ يَسْقِينَا فَقَالَ اللَّهُ اسْقِنَا مَرَّتَيْنِ وَأَيُّمَ اللَّهُ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ فَرَعَةً مِنْ سَحَابٍ فَتَشَأَتْ سَحَابَةٌ وَأَمْطَرَتْ وَنَزَلَ عَنِ الْمُنْبِرِ فَصَلَّى فَلَمَّا انصَرَفَ لَمْ تَزَلْ تُمْطِرُ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ صَاحُوا إِلَيْهِ تَهَدَّمَتِ الْبُيُوتُ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يَحْسِبُنَا عَنَّا فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا فَكَشَطَتْ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَتْ تَمْطُرُ حَوْلَهَا وَلَا تَمْطُرُ بِالْمَدِينَةِ قَطْرَةً فَنظرتُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَإِنَّهَا لَفِي مِثْلِ الْإِكْلِيلِ))

[البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

أحاديث أخرى تؤكد أهمية صلاة الاستسقاء:

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

((شكا الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحوظ المطر ، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى ،
ووعد الناس يوماً يخرجون فيه ، قالت عائشة: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدا حاجب
الشمس ، متواضعاً، متبذلاً، متخشعاً، مترسلاً، متضرعاً ففعد على المنبر ، فكبر وحمد الله عز وجل ثم
قال: إنكم شكوتم جدب دياركم ، واستنخار المطر عن إبان زمانه عنكم ، وقد أمركم الله عز وجل أن
تدعوه ، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين،
لا إله إلا الله يفعل ما يريد ، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث
من السماء، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين، ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض
إبطيه ، ثم حوّل إلى الناس ظهره، وقلب أو حوّل رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس ، ونزل
فصلى ركعتين، فأنشأ الله سبحانه فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله تعالى، فلم يأت مسجده حتى
سألت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك حتى بدت نواجذه فقال: أشهد أن الله على كل شيء
قدير ، وأني عبد الله ورسوله))

[أبو داود عن عائشة رضي الله عنها]

وعن زيد بن خالد الجهني أنه قال:

((صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالخدبية على إثر سماء كانت من الليلة فلما
انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال أصبح من عبادي
مؤمن بي وكافر فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال:
بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب))

[متفق عليه عن زيد بن خالد الجهني]

الله يستجيب لعباده المؤمنين الذين استجابوا له فأطاعوه و أخلصوا في طاعتهم اسحقاقا:

أخوة الإيمان في كل مكان، ونحن نذكر هنا للسيد الرئيس دعوته أولى الأمر والمواطنين إلى إقامة
صلاة الاستسقاء تطبيقاً للسنة النبوية المطهرة، والتماساً لرحمة الله بأن يرسل علينا الغيث من السماء،
وقد جاء في بيانه مضمون هذه الدعوة، أنها تأتي نتيجة لتأخر هطول الأمطار هذا العام، وأن صلاة
الاستسقاء هي رجاء الرحمة من السماء، ونداء صدق تتواصى به النفوس المؤمنة خيراً، ورحمة للبلاد
والعباد، وينبغي أن تسبقها التوبة الصادقة من المعاصي والذنوب، ورد المظالم والحقوق إلى أصحابها،
وصيام ثلاثة أيام قبل اليوم الذي تؤدي فيه صلاة الاستسقاء.

وقد فضل ربنا واستجاب لعباده المؤمنين الذين أدوا صلاة الاستسقاء، واستغفروا ربهم وتضرعوا إليه
أن يفتح لهم أبواب السماء، معلنين عبوديتهم وافتقارهم إلى الله الواحد القهار الذي قال في محكم كتابه:

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكٍ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(سورة فاطر)

لقد استجاب ربنا جل جلاله لنا صبيحة ليلة القدر ففتحت أبواب السماء بماء منهمر وتساقطت الثلوج بعد انحباس استمر عاماً وزيادة، فاقتربت نسب الهطول في بعض المحافظات من نصف المعدل السنوي بحسب نشرة وزارة الزراعة الصادرة في العاشر من الشهر الأول من هذا العام.

والجدير بالذكر أن الله جل في علاه يستجيب لعباده المؤمنين الذين استجابوا له فأطاعوه وأخلصوا في طاعتهم استحقاقاً، وقد يستجيب لعباده المضطرين الذين كاد يهلكهم الجفاف، وقصروا في طاعتهم وإخلاصهم قد يستجيب لهؤلاء تفضلاً وتشجيعاً، وقد يستجيب رحمة بالضعاف الطائعين الذين أشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:

((لولا شباب خشع، وشيوخ رقع، وبهائم رتع، وأطفال رضع، لصبَّ عليكم العذاب صباً))

[أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو يعلى في مسنده، والبيهقي في السنن الكبرى عن أبي هريرة]

فضل الله تعالى علينا:

إن كنا مشمولين باستجابة الاستحقاق فهذا من فضل الله علينا، وإن أظلمتنا استجابة التفضل والتشجيع فلنتدبر أمرنا، ونصلح ذوات نفوسنا، ولنقبل على طاعة ربنا فهذه الفرصة ربما لا تتكرر. قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

(سورة الشورى)

قال ابن عباس:

((إن للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسينة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، وهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق))

[ذكره ابن القيم في الجواب الشافي]

أيها الأخوة المؤمنون، إني داع بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء: " الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، تفعل ما تريد، اللهم لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، اللهم إنك أمرتنا بدعائك ، و وعدتنا بإجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا أنزل علينا الغيث من السماء، واجعل ما أنزلته علينا قوة لنا، وبلاغاً إلى حين ". اللهم اسقنا غيثاً مغِيثاً هنيئاً مريئاً مريعاً غداً مجللاً سحاً عاماً طبقاً دائماً نافعاً غير ضار، عاجلاً غير

أَجَلِ. اللَّهُمَّ اسْقِنَا الْعَيْثَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْفَانِطِينَ. اللَّهُمَّ إِنَّ بِالْبِلَادِ وَالْعِبَادِ وَالْخَلْقِ مِنَ الْأَوَاءِ وَالضَّنْكِ مَا لَا نَشْكُوهُ إِلَّا إِلَيْكَ. اللَّهُمَّ أَنْبِثْ لَنَا الزَّرْعَ وَأَدِرِّ لَنَا الضَّرْعَ وَاسْقِنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَأَنْبِثْ لَنَا مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ إِنَّكَ كُنْتَ غَفَّاراً فَأَرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْنَا مِدْرَاراً اللَّهُمَّ حَوِّأَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا ، اللَّهُمَّ عَلَى الْأَكَامِ وَالجِبَالِ وَالظَّرَابِ وَبُطُونِ الْأُودِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ.

اللَّهُمَّ سُقِنَا رَحْمَةً، وَلَا سُقِنَا عَذَابٍ، وَلَا بَلَاءٍ، وَلَا هُدْمٍ ، وَلَا عَزَقٍ.

اللَّهُمَّ ارْفَعْ عَنَّا الْجُهْدَ ، وَالْجُوعَ ، وَالْعُزْيَ ، وَاكْشِفْ عَنَّا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَكْشِفُهُ غَيْرُكَ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فاستغفروه يغفر لكم فيا فوز المستغفرين، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين

فرق القتال في جهاز المناعة:

أخوتي المؤمنين أعزائي المستمعين، والآن إلى الموضوع العلمي :

يعد جهاز المناعة المكتسب من أخطر الأجهزة في الجسم البشري، وهو جيش دفاعي عالي المستوى والجاهزية، فيه فرق الاستطلاع، وفرق تصنيع السلاح، وفرق القتال، وفرق الخدمات، وفرقة المغاوير، والحديث اليوم عن فرق القتال في كريات الدم:

يرسل فريق من كريات الدم البيضاء التي صنعت وتشكلت في نقي العظام والتي فرزت لمهام قتالية ترسل إلى مدرسة حربية اسمها الغدة الصعترية (التي موس) في دورة تثقيفية تدريبية، وبعد اجتياز الامتحان تتخرج بلقب (الخلية التائية المثقفة)، وفي هذه المدرسة الحربية تدرس هذه الكريات البيضاء التي فرزت للقتال مادتين أساسيتين: التعريف بالذات والصديق، والتعريف بالعدو الممرض.

في المقرر الأول: يعرض على هذه الخلايا مئات الألوف من البروتينات التي تدخل في بناء الجسم البشري، ثم ترمز هذه العناصر الصديقة، وتدريب هذه الخلايا على ألا تهاجمها، لأنها إن هاجمتها فمعنى ذلك أن الجسم يدمر نفسه، ويتلف بعضه.

في المقرر الثاني: يعرض على هذه الخلايا ما عرفه النوع البشري عبر الأجيال على أنه عنصر ممرض من خلال مناعات الأم التي تصل إلى المولود من خلال الحليب، ومن خلال التجربة الحية، إذ

أن الطفل في السنوات الأولى يميل بفطرته إلى التقاط الأشياء ووضعها في فمه لتتعرف خلاياه المقاتلة على العناصر المعادية، أو أن العدوى بالأمراض تعطيه مزيداً من المعلومات عن أعدائه، ومن خلال هذه المحاضرات تتعرف هذه الكريات البيضاء المقاتلة على العناصر المعادية التي عليها أن تهاجمها، أو تذيب نبأ وجودها، أو تساهم في إلقاء القبض عليها.

امتحانات تمر بها الكريات البيضاء:

من خلال المجاهر الإلكترونية تبدو الغدة الصعترية من خلالها على شكل مدرجات رومانية تصطف الكريات البيضاء عليها لتتلقى هذه المحاضرات القيمة، ولا بد في أية جامعة أو معهد أو مدرسة من امتحان. تمر هذه الكريات فرادى في بوابات امتحانية وتمتحن واحدة واحدة في المقررين السابقين: امتحان المادة الأولى: يعرض على الكرية البيضاء الممتحنة عنصر صديق، فإن هاجمته أخفقت في الامتحان، ومنعت من مغادرة الغدة الصعترية، وقتلت لأنها إن خرجت إلى الدم تهاجم الجسم الذي شكلها.

امتحان المادة الثانية: يعرض على الكرية البيضاء الممتحنة عنصر عدو ممرض، فإن أخفقت في تمييزه والرد عليه رسبت في الامتحان ومنعت من مغادرة الكلية وقتلت، لأنها إن خرجت إلى الدم غفلت عن العدو ومكنته من مهاجمة الجسم.

يستمر عمل هذه الكلية الحربية (الغدة الصعترية) من بدء الولادة وحتى السنة الثالثة، وبعدها تقوم بتوريث علم مراقبة وضبط عمل الكريات البيضاء إلى الكريات البيضاء الناجحة في الامتحان والتي سميت بعد التخرج بالخلايا النائية المثقفة لتقوم بدورها في نقل هذا العلم إلى أجيال الكريات البيضاء اللاحقة.

في السبعينات من العمر يضعف تثقيف الكريات البيضاء المقاتلة فتبدأ بمهاجمة العناصر الصديقة، وبعض أجهزة الجسم وأعضائه فنرى في هذا العمر أمراضاً شائعة كالتهاب المفاصل الرثوي، وبعض الاعتلالات الكلوية، وأمراض المصلبيات، وأمراض أخرى ما كان سببها إلا ضعف ثقافة الجهاز المناعي الذي ينتج عنه زوال الضبط في عمل الخلايا المقاتلة وهو خرف الجهاز المناعي، فتصبح الخلايا المناعية المقاتلة تهاجم الجسم الذي شكلها وثقفها للدفاع عنه وتكون حالة الجسم ما يشبه الحرب الأهلية.

أَعْلَمُه الرمايَة كُلَّ يَوْمٍ فلما اشتدَّ ساعده رماني
وكم علّمته نظم القوافي فلما قال قافيةً هجاني

* * *